المحاضرة التاسعة: الشخصية في القصة القصيرة

الكتابة القصصية ممارسة للحكي، ولا يمكن للحكي أن يوجد خارج دائرة الأفعال. ولا يمكن للأفعال أن تتحقق دون وجود من يفعلها. هذا الـ "من" هو ما يصطلح عليه في الدراسات الأدبية بالشخصية.

وإذ لا يمكن وجود رواية أو قصة أو مسرحية خارج الزمان والمكان، فلا يمكن وجود رواية أو قصة أو مسرحية بدون شخصيات. وإذا كان وجود الزمان والمكان افتراضيا في العديد من الأعمال الروائية والقصصية والمسرحية فإن نفس الافتراض لا يمكن أن يهتم بالشخصية.

1- ما هي الشخصية؟

يمكن مقارنة موضوع الشخصية من مجموعة من الزوايا المختلفة اعتمادا على المدارس النقدية التي تأسست لمقاربة الأعمال الإبداعية، يمكن أن نعتد على البنيوية أو على الوظيفية أو على النقد اللساني أو على النقد النفسي أو على النقد الاجتماعي. ويمكن أن نعتد على كل هذه المدارس في آن واحد.

لكن اختلاف المقاربات أو زاوية الولوج إلى العمل الأدبي لا يمكن أن يغير كثيرا من تثبت معالم موحدة تساهم في التعريف بالشخصية.

فالشخصية أولا وقبل كل شيء مكون رئيسي، وركيزة أساسية لكل عمل سردي. والشخصية في هذه الحالة تلعب دورا بنيويا أو وظيفيا يوازي دور البنيات الأخرى: الزمان والمكان والأحداث.

ويعرف **رولان بارت** الشخصية بـ "أنها ناتج تركيب يمكن أن يتكون من مجموعة من السيمات التي تتكرر فتكون تركيبية قادرة أو تركيبية معقدة عندما تضم علامات متناسقة أو متنافرة. وهذا التعقيد أو هذا التعدد هو ما يحدد شخصية الشخصية".

ويمكن أن نجد لهذا التعريف مرجعية في أعمال كل من **بروب وسوربو وغريماس**، فهذا الأخير الذي انطلق من أعمال الأولين يقدم الشخصية كنموذج نحوي يبني كيانه من خلال علاقاته التركيبية والجذرية أو الصرفية. وانطلاقا من ذلك حدد **غريماس** نموذج الفاعلي المتكون من ستة فواعل.

ويتركز الاختلاف بين تعريف بارت وتقديم غريماس حول اعتبار الشخصية لذاتها أو لوظيفتها. بالإضافة إلى أن بارت يفرق بين الشخصية و"الهيئة". يقول بارت: "كهيئة، يمكن للشخصية أن تتأرجح بين دورين دون أن يكون لهذا التأرجح أي معنى".

2- صياغة (صناعة) الشخصية.

يقول الدكتور عز الدين إسماعيل: "إن الشخصيات ذاتها في القصة نوعان: نوع يمكن أن نسميه **"الشخصية الجاهزة"** وهي الشخصية المكتملة التي تظهر في القصة- حيث تظهر دون أن يحدث في تكوينها أي تغيير وإنما يحدث التغيير في علاقتها بالشخصيات الأخرى فحسب. أما تصرفاتها فلها دائما طابع واحد. والنوع الثاني يمكن أن نسميه **"الشخصية النامية"** وهي الشخصية التي يتم تكوينها بتمام القصة فتتطور من موقف لموقف، ويظهر لها في كل موقف تصرف جديد يكشف لنا عن جانب منها".

فالشخصية القصصية التي أصبحت تبدو معقدة أكثر فأكثر تترجم نوعا من الوعي بالواقع الذي أصبح بدوره أكثر تعقيدا، وقد أثرت الكتابة الغرائبية كثيرا على تصور الشخصية، حيث انتقلت عدوى غرائبية الأحداث إلى الشخصية.

3- غياب الشخصية.

كتب مبارك ربيع قصة "الرجل السنفوني" بدون أحداث وبدون شخصيات رغم أن عنوانها يوحي بوجود رجل من نوع ما. حيث بنى كل قصته على وصف محتويات غرفة بسيطة. فهل يمكن أن تكون هناك قصة بدون أحداث وبدون شخصيات تصنع هذه الأحداث؟ بالطبع لا، وإلا فما كانت هناك قصة، من قص يقص أي يحكي. ولا يمكن للحكي أن يكون إلا إذا وقع واقع، ولا يقع الواقع، إلا إذا أوقعه شخص ما أو شيء ما.

وهذا "الشيء ما" هو ما حاولت الرواية الجديدة أن تصل إليه، يقول لوسيان كولدمان متحدثا عن آلان روب-كريبي: "بالنسبة له أيضا، فاختفاء الشخصية أمر مقرر سلفا حيث استبدلت الشخصية بواقع آخر مستقيم (...). عالم تتشبه الكائنات، وكما يبحث هو أيضا عن الواقع الإنساني، فإنه يلاحظ أن هذا الواقع الذي لا يمكن أن يوجد في البنائيات العامة كواقع تلقائي محسوس مباشرة، لم يعد بإمكانه أن يوجد إلا إذا تجدد داخل بنية وخصائص الأشياء".

بالنسبة لنا هذا الاختفاء ليس سوى موارد أو تغيير للملامح.. وبذلك فمع غياب الشخصية فإننا نكون أمام احتمالين: إما أننا نقوم بتشخيص الأشياء ونرجع إلى تحليل فلاديمير بروب لشخصية الحكاية الروسية حيث تصبح الحيوانات والأشياء عبارة عن فواعل وبالتالي عبارة عن شخصيات، وإما يصبح السارد -الفوقى (la narrateur omniscient) شخصيته الرئيسية دون أن يشير إلى ذلك ويكون فعله هو المشاهدة فقط.

وإذا رجعنا إلى قصة الرجل السمفوني لمبارك ربيع نقراً: "الغرفة ضيقة أو تضيق". ونقرأ: "أمام النافذة مقعد وثير متحرك، ومكتب تغطيه قطعة زجاجية بحجمه، تلتق به، وعلى امتداد المكتب من الجانبين الطاولتين، تقاطع كل منهما طاولة أو عدة طاوولات، ملتصق بعضها ببعض، تبدو متكاملة".

ونقرأ: "لا يمكن الجزم بحالة الطاوولات المتلاصقة من حيث نوعية التكوين وطبيعة المادة. العين لا ترى منها شيئاً بسبب ما تلاصق على صفحاتها من أجهزة تسجيل" ونبدأ من المقطع الأخير لنتساءل عن هذه العين التي لا ترى شيئاً، فأين عين هي؟ ولماذا هي؟ ونعود إلى الجملة الأولى في القصة "الغرفة ضيقة أو تضيق"، فعلى من تضيق، خصوصاً وأن هذا الفعل لم يتبعه تدقيق يحدد معناه؟ فنعتبر أن هناك شخص حاضر- غائب كل الأشياء الموصوفة متعلقة به.

إن وجود الشخص في أي عمل قصصي أمر حتمي، فالعمل القصصي لا تقوم له حكاية دون شخص ينشأ بينهم صراع، ينهي الأحداث ويصعد، فلا يكفي الحدث وحده في بناء قصة ما.

ولكي تكون الشخصية القصصية عنصراً مقنعاً في القصة، يجب أن تكون متطورة وذات أبعاد تحددها، كالحوافز والدوافع التي تدفعها للقيام بعمل ما، وتحدد الشخصية أيضاً بلامحها وتصرفاتها والتي تزيدها عمقاً ومتانة، كما يجب أن تكون شديدة الارتباط بالحدث مؤثرة فيه، ومتأثرة به.

وتحدد أبعاد بناء الشخصية في القصة القصيرة كالآتي:

- البعد الجسدي أو البراني ويشمل المظهر العياني والسلوك النافر.

- البعد النفسي أو الجواني، ويشمل الحالة المتخفية والفكرية.

- البعد الاجتماعي ويتعلق بمكانة الشخصية في حلبة المجتمع ومحيطها وظروفها. (مصطفى اجماهيرى الشخصية في القصة القصيرة.

بينما تُصنف الشخصية كالآتي:

الشخصية الرئيسية: هي الشخصية الفنية التي يصطفها القاص لتمثل ما أراد تصويره أو ما أراد التعبير عنه من أفكار وأحاسيس.

الشخصية المساعدة: على الشخصية المساعدة أن تشارك في نمو الحدث القصصي، وبلورة معناه والإسهام في تصوير الحدث. ويلاحظ أن وظيفتها أقل قيمة من وظيفة الشخصية الرئيسية.

الشخصية المعارضة: وهي شخصية تمثل القوى المعارضة في النص القصصي، وتقف في طريق الشخصية الرئيسية أو الشخصية المساعدة، وتحاول قدر جهدها عرقلة مساعيها. وتعد أيضاً شخصية قوية، ذات فعالية في القصة، وفي بنية حدثها، الذي يعظم شأنه كلما اشتد الصراع فيه بين الشخصية الرئيسية والقوة المعارضة.

وتعد البحوث التي أنجزها كل من "غريماس" و"كلود بريمون" و"رومان ياكبسون" و"تزفيتان تودوروف" و"فيليب هامون" من أهم ما كتب من أفكار حول تحليل الشخصية في النص السردي. وبسبب ازدواجية موقع الشخصية بين البناء والخطاب، فإنها تدرس كوظيفة (تركيب) وكمصدر لوجهة النظر (خطاب).

ملاحظة:

لابد أن يطلع الطلبة على محتويات المحاضرة التي قُدمت حضورياً.